سيدي الرئيس

2. اتصالات العقيد

شق الصمت المطبق رنين ذلك الهاتف العتيق في تلك الغرفة المهملة. لم يكن بها إلا طاولة بالية – كان الهاتف موضوع عليها – و كرسي قديم و مصباح مكتب على الطاولة ينير الهاتف. جدران الغرفة بدت و كأنها بنيت في الحرب العالمية الثانية و مرت بحروب عالمية و أهلية و بقت على حالها منذ ذلك اليوم، خالية من الأثاث إلا من طاولة و كرسي و هاتف و مصباح مكتب – و طفاية للسجائر...

أطفأ الرجل الجالس على الكرسي سيجارته في تلك الطفاية. كان الظلام يلف المكان على الرغم من وجود المصباح المنار و المثبت على سطح الطاولة بشكل صَعُبَ رؤية أركان الغرفةِ بها، و دخان السجائر الذي يعمى العيون من كثافته و شدته – و كأن السجائر المدخنة من النوع المحلي الرخيص.

ظل الهاتف يرن و ذلك الرجل بالبزة – التي بدا عليها القدم – يطفئ آخر سيجارة دخنها في طفاية السجائر قبل أن يرفع سماعة الهاتف و يضعها على أذنه...

"مطعم الكرامي... نعم؟ آسف... بقد طلبت الرقم الخاطئ، فهذا ليس منزل السيد مصطفى كرامي ... لا مشكلة". دارت هذه المحادثة القصيرة قبل أن يضع السماعة على الهاتف و يهم بإشعال سيجارة أخرى، إلا أنه أدرك بأن السجائر نفذت منه و ارتسمت ابتسامة باردة على وجهه المرهق.

لم يكن هذا الرجل طاعناً بالسن، بل شاباً لم يتجاوز عمره 26 عاماً. أخرج محفظته و فتحها لينظر إلى صورة زوجته و ابنه قبل تغير ملامحه و ارتسام التعابير على قسمات وجهه و تلألأت بالدموع عيناه المحمرتين...

رن الهاتف مرة أخرى...

"مطعم الكرامي... نعم؟ كيف يمكنني أن أخدمك يا سيدي؟؟ إدارة مراقبة المطاعم بوزارة الصحة؟؟؟ كيف يا سيدي؟"

"ما الذي تقوله!؟!! وُجد الفأر ميتاً في المطبخ؟!! حاضر، سأخبر المدير... شكراً!!" و سجل الرجل ملاحظات في دفتر أخرجه من جيبه بقلم حبر أسود.

لحظتها دخل الغرفة رجل يلبس بدلة عسكرية أنيقة و نظيفة مزينة بالنجوم و النياشين ، بدا على صاحبها أنه ضابط رفيق المستوى. توجه الضابط إلى الرجل الجالس على الكرسي...

"سيدي! يقولون أنهم وجدوا الفأر ميتاً بالمطبخ!"

"حقاً؟ منذ متى؟؟؟"

"منذ دقائق فقط يا سيدي! و يقولون أنهم وضعوا (هراً برياً) في المطبخ لمنع دخول الفئران له مرة أخرى!"

تجمدت ملامح العقيد – و الذي بدا انه في الخمسينات من العمر – و هو ينظر بنظرات باردة إليه.

"حسناً... عد إلى عملك أيها العريف!"

"عُلِم سيدي!" قبل أن يستدير العريف و يقابل الطاولة، و يخرج العقيد من الغرفة...

"إذا فقد مات جيري..." قالها العقيد في نفسه و هو يخطوا خطوات واسعة بمشية عسكرية جادة في أروقة المخزن.

"أصبحت هذه البلاد الآن على كف عفريت..."

"إذا علم (توم) بهذا سيغضب غضباً شديداً، فلا يوجد أحد الآن (جيري) يؤنس وحدته و يسعى للقضاء عليه – و إن لم يكن (توم) ينوي ذلك يوماً... إذا علم توم بذلك سيسعى للانتقام بالقضاء على (الهر البري)..."

"و ربما من (وزارة الصحة) نفسها!"

استدار العقيد يميناً ليدخل غرفة أخرى من غير نوافذ، امتلأت بالصناديق التي غطت كل الجدران ما عدا جزءٍ من أحدها. أخرج بطاقة بلاستيكية و مررها في شق ضيق امتد على طول الجدار – و كأنه شق صنعه الإهمال و الزمن – ليسمع (طقة) أزاحت الجدار، ليتبين أنه باب سري يفضي إلى سلم حديدي قديم.

نزل العقيد خطوات السلالم بخطوات متسارعة ليصل إلى ردهة ممتلئة بأشخاص يلبسون أزياء عسكرية يجرون يمنة و يسرى قبل أن ينتهي في غرفة ضخمة غطى أحد جدرانها شاشة الكترونية كانت من الضخامة بمكان أنها ارتفعت مقدار طابقين عن الأرض، بدت عليها خريطة العالم و نقاط خضراء و صفراء و حمراء و زرقاء و رموز و إشارات عديدة، جلس تحتها عشرات الموظفين أمام شاشات الكمبيوتر يراقبون باهتمام المعطيات و المعلومات الواردة على الشاشة...

"سيدي" صاح النقيب الذي وقف ليؤدي التحية العسكرية بجانب العقيد...

"أيها النقيب!" رد العقيد بحزم.

"نعم سيدي!!"

"أخبر الجميع أن (جيري) مات. (الهر البري) قتله و أحتل مكانه..."

اتسعت عينا النقيب قبل أن يرد قائلاً "منذ متى يا سيدي؟!"

"منذ قليل أيها النقيب"...

"لكن... ألن يغضب هذا (توم) كثيراً؟؟؟"

"أجل، سيغضب للغاية عندما يعلم بذلك" بينما كان العقيد يهم في المشي نحو مكتبه...

"ألن نتخذ إجراءً مضاداً لذلك، سيدي؟"

ألتفت العقيد إلى النقيب قبل صمته للحظات...

"حتى نتلقى أمراً من القيادة العليا لن نتحرك قيد أنملة... و لكني أريد منك إعداد فريق طوارئ من وحدة تدخل سريع في حال ورود شيء على الصعيد الميداني، و إعداد غرفة عمليات و فريق دعم لوجستي و استخباراتي"

"حاضر سيدي!"

"انصراف!" قالها العقيد و هو يهم بالجلوس على مكتبه.

"لكن سيدي... لماذا قامت وزارة الصحة بنفسها بقتل جيري؟ ذلك ليس من عادتها... عادة توكل الوزارة (ابن آوى) لهذا النوع من المهمات سيدي العقيد..." و نبرة التساؤل كانت ظاهرة على كلام النقيب.

"هذا ليس من شأننا الآن. قم بالعمل على تنفيذ الأوامر حالاً أيها النقيب!"

"حاضر سيدي!" أدى النقيب تحية عسكرية قبل أن يهم بالانصراف.

أشعل العقيد السيجار الكوبي و نفث دخانه في أرجاء الغرفة. وضع ساقه على ظهر المكتب و اتبعها بالساق الأخرى فوق الساق الأولى و هو يدلك صدغيه في دلالة على صداع ألم به.

"عرفت (جون) منذ سنوات كرقيب في البحرية" تمتم العقيد و هو يخاطب نفسه.

"بالنسبة لي، هو أقرب إلى الـ(هامستر) من (قط بري)... إلا إذا كان ذلك النوع من الـ(هامستر) الذي قام بتربيته (الذئاب) بعد أن التقطه (الوطنيون)... لكن الفأر يبقى فأراً و القط قطاً و الكلب كلباً... و الذئب ذئباً".

"إلا الثعلب... فهو يصبح ما شاء وقتما يشاء مكان ما شاء..."

"الثعالب!" و هو يبتسم ابتسامة عريضة ممزوجة بضحكة في نبرات صوته. وضع العقيد عقب السيجار بين شفتيه و أخذ نفساً عميقاً قبل أن يزفر الدخان ببطء إلى سقف المكتب و هو متمدد على الكرسي الجلدي – و الذي مال بدوره إلى الوراء – بينما كان العقيد مغمض العينين...

"حرب فيتنام... 1969..."

"كنت صبياً في السابع عشرة من عمري عندما أرسلوني هناك بعد انضمامي للجيش طالباً (للشفاعة)، لي و لأسرتي بعد انتقالنا من (لينينجراد) إلى (ديترويت)..."

"كان الناس يعتقدون بأننا لازلنا شيوعيين. كان ينظر إلينا و كأننا عملاء للاتحاد السوفيتي، نتجسس و ننقل المعلومات الاستخباراتية إلى مراكز جمع المعلومات ليتم نقلها بدورها إلى الـ(كرملين). لم يكن لي أصدقاء في حين لم أكن أتقن اللغة الانجليزية".

"روسيا الأم كانت تعتبرنا خونة. كنا من القلة القلائل الذين استطاعوا الهرب بنجاح و الوصول إلى الولايات المتحدة أحياء. آخرون غيرنا امسكهم (الجيسباو) و اعدم بعضهم بتهمة الخيانة العظمى و العمل لصالح عدو الاتحاد الأكبر و حلفائه..."

قطع حبل أفكاره صوت "الهاتف الآمن" و هو يرن على الجانب الأيمن من مكتبه. ورد (العقيد) اتصال من مساعد وزير الدفاع. انتهيت المكالمة بسرعة بعد عدة كلمات ألقاها مساعد وزير الدفاع تلتها "حاضر سيدي" من العقيد إلى مساعد الوزير.

وضع العقيد يداه مشبوكتين تحت ذقنه و تنهد ببطئ...

رفع العقيد سماعة الهاتف مرة أخرى و طلب خطاً آمناً من عامل البدالة في مركز الاتصالات. ضغط (العقيد) رقماً دولياً يقع في جزر الكاريبي. أجابه جهاز الرد الآلي بلغة اسبانية و صوت أنثوي من أمريكا اللاتينية: "مرحباً بكم إلى مركز خدمات كاريبيان – تل. للاستفسار عن الفاتورة، أضغط 1. لمعرفة المزيد عن خدماتنا، اضغط الزر 2. للاطلاع على عروضنا الترويجية، اضغط..."

سارع العقيد بالضغط على الرقم 7، متجاهلاً باقي الأوامر الصوتية.

"نأسف، الرقم الذي اخترته ليس صحيحاً. للاستفسار عن فاتورتك، اضغط الزر 1. لمعرفة المزيد..."

ضغط العقيد على الرقم 5 و سمع صوت رنين الهاتف المقابل على الخط قبل أن يُرفع الهاتف من قبل عاملة البدالة و ردها على الاتصال بلكنة اسبانية محلية.

"كاريبيان – تِل. كيف يمكنني مساعدتك؟"

"أود الاتصال بجون ماركس"

"آسف سيدي، ليس لدينا شخص مسجل بهذا الاسم. هل يمكنني مساعدتك بشيء آخر؟"

"يبدوا أن الجو غائم لديكم..." قالها العقيد باللاتينية الفصحى.

"كلا سيدي، و لكن الرياح عاتية. يبدوا أنها ستمطر بعد يومين." ردت عليه عاملة البدالة بلكنة لاتينية فصحى أيضاً.

"حقاً؟ أود الاتصال بمدير مركز الأحوال الجوية."

"حاضر سيدي..."

بعد ثواني سمع العقيد صوت جهاز رد آلي آخر و سارع إلى الضغط على الرقم 8، و ساد الخط الصمت قبل أن يرد عليه صوت عجوز بدا مخنوقاً و يستطيع الكلام بصعوبة بالغة...

"كيف حالك اليوم يا ابتي؟"

"بخير يا بني. الناس يتوافدون على دور العبادة اليوم طلباً للغفران. لم أرى هذا العدد من الناس يطلب المغفرة قدر ما رأيت اليوم"

"لماذا؟ هل هو خائفون من إعصار مقبل أو عاصفة قادمة؟"

"لا أعلم... و لكني سمعت أن أحدهم قد فعل فعلاً مشيناً بحق الرب، و قد يغضبه ذلك و يطال عقابه الجميع، لهذا هم هنا يريدون السماح..."

"و هل استسمحت لهم يا أبتي؟"

"هم أناس طيبون... يستحقون المغفرة من السماوات العلى... إن الناس هنا فقراء و معوزين، و أي تهديد لأرزاقهم تهديد لحياتهم و حياة أولادهم."

"أبتاه... أريد المغفرة أنا أيضاً..."

"لماذا؟ ماذا فعلت؟"

"لم افعل شيئاً... و لكني أوشك القيام بفعل خاطئ..."

"تعلم جيداً يا بني إننا لا نستطيع الاستغفار لشخص ينوي ارتكاب خطيئة حتى يقوم بها. و لكن، ما الذي تنوي القيام به؟"

"لا انوي القيام بشيء محدد. إنما أقوم بما يفرض علي من أناس آخرين."

"هل أنت مجبر على القيام بذلك؟"

"نعم يا أبتاه"

"إذاً... أنت لا تتحمل أي مسؤولية تجاه الرب في هذه المسألة... من أجبرك على هذا العمل عليه طلب المغفرة، لا أنت..."

"صحيح يا أبتاه..."

"إذا، أذهب و اعمل في سبيل الرب مع بركاته"

"شكراً أبتاه... أشكرك على هذه الخدمة"

"قبل أن تذهب يا بني، إننا نعاني من غزو الفئران لكنيستنا و هي تأكل من خبزنا و تشرب من مائنا و تنقل الأمراض لنا... هل تستطيع القيام بشيء حيال هذا؟"

"سأرى ما يمكنني فعله بهذا الشأن يا أبتاه"

"لكن لا تدع وزارة الصحة تعلم بهذا، إذا علموا فقد يغضبون من هذا الأمر لوعدي إياهم بعدم دخول فأر آخر مجدداً للكنيسة، و لكن هذه الفئران تبدوا أذكى مما كنا نعتقد و بدأت تصنع ممرات لها خلال جدران الدار"

"أعدك بذلك! سأتصل بالـ(كانسين) ليكنسوا أرضية الكنيسة من الفئران و أوساخهم."

"بارك الرب فيك يا بني! لو لم تكن موجوداً و علمت الوزارة بالأمر فإنها سترسل لي (أفاعي) لأكل هذه الفئران و (هررة برية) لحراسة المكان، هذا ما اخبروني به آخر مرة..."

تغيرت ملامح العقيد و هو يسمع كلمات القسيس الأخيرة.

"أهذا ما قالوه حقاً؟"

"نعم! أخبرتهم أن الأمر لا يستحق هذا كله، لكنهم توعدوا بفعل ذلك حتى إذا رأوا براز فأراً واحداً على أرضية الكنيسة!!!"

"سأفعل ما بوسعي للحيلولة دون ذلك"

"أحسنت... أحسنت يا بني! آه، طالب مغفرة آخر... يتوجب علي الذهاب لخدمة الرب يا بني"

"حسناً يا أبتاه... أشكرك على النصح و التوجيه. في أمان الرب" و أغلق الهاتف و تسمرت عيناه على جدار الغرفة، و الصمت المطبق يلف المكان إلا من صوت حركة عقرب الثواني في الساعة المثبتة على حائط الغرفة، و التي كانت تشير إلى الخامسة صباحاً في اليوم الأول من أكتوبر للسنة الجارية.

"هذا سيء..." العقيد مخاطباً نفسه داخل ذهنه...

"ما الذي يحدث هنا؟ أفاعي و هررة برية و فئران و ثعالب و ذئاب... يبدوا أن إدارة حديقة الحيوانات بدأت تفقد السيطرة على الحيوانات التي كانت ترعاها و تطعمها. يبدوا أن هنالك شيء يحدث الآن في هذه الغابة التي نعيش فيها و أحدهم يحاول كتم الأمر عنا..."

"هل هذا مدبر من وزارة الصحة؟ ممكن..."

"و لكن هذا سيجعل مهمتنا أصعب مع كل هذه الحيوانات المتوحشة هنا و هناك"

التقط العقيد معطفه من فوق الطاولة و خرج من الغرفة تاركاً قبعته و محفظته على الطاولة حاملاً مسدسه و بطاقة الدخول مغلقاً الباب ورائه و هو غارق في التأمل و التفكير، خاطياً خطواته بتمهل و سعة. سقطت ورقة صغيرة من على سطح مكتبه بينما كان يهم بالتقاط معطفه طبع عليها باللون الأحمر "من موسكو: سري و عاجل " ورد فيها التالي:

إلى: مطعم الكرامي
الموضوع: إضافة وصفة جديدة إلى قائمة الطعام

نص الرسالة:

إلى القائمين على المطعم
تحية طيبة و بعد،،،

نشكركم على الطعام اللذيذ الذي تحضّرونه و الجودة العالية التي تقدمون بها طعامكم إلى زبائنكم و قائمة الوجبات المتجددة دوماً و التي ترضي جميع الأذواق.

إلا أننا آثرنا الإفصاح باقتراحٍ لإضافة طبق مكسيكي، ألا و هو "ستيك لحم الجاموس بفلفل الهالابينو و صلصة الذرة الحارة" لعشاق المذاق المكسيكي الحار لتكتمل به قائمة الطعام الرائعة الخاصة بكم إرضاءً لذوق محبي الطعام المليء بالفلفل و اللحم الطري.

نثمن تقبلكم رسالتنا هذه بصدر رحب و نرجو تطبيق اقتراحنا هذا.

مع خالص الشكر و التقدير،،،

التوقيع: مجموعة من رواد المطعم الدائمين.

استدار العقيد أثناء توجهه لقاعة الاجتماعات عندما تذكر أنه نسي شيئاً على مكتبه. فتح باب المكتب و وجد الرسالة ملقاة على الأرض. ألقى نظرة عليها و قام بقراءتها قراءة سريعة قبل أن يلتقط محفظته من على سطح المكتب و يلقي الورقة في سلة المهملات.

"فليأتوا إذاً و يديروا (الكرامي) بدلاً مني... إنهم يقدمون طلباتهم دائماً في آخر لحظة... يقترحون إضافة (وصفة) في هذا الوقت ؟! يريدون طعاماً مكسيكٍي أيضاً ؟! لابد أنهم يمزحون!! يا الهي، ارحمني منهم..."

و أغلق العقيد الباب ورائه في عجل متوجهاً إلى غرفة الاجتماعات بعد الإعلان عن اجتماع طارئ للضباط في المركز، و لكن بعنف هذه المرة...